OPEN ACCESS
Al-Qamar
ISSN (Online): 2664-4398
ISSN (Print): 2664-438X
www.alqamarjournal.com

الأغراضُ الشِّعريةُ عند الشاعرِ المُخَضْرَمِ حُمَيْدِ بنِ ثَوْرٍ الهِلاليّ

Poetic Themes in the Poetry of the *Ḥumayd ibn Thawr al-Hilālī*

Dr. Iftikhar Ahmad Khan
Assistant Professor, Department of Arabic, Government College University Faisalabad, Pakistan
Email: *iftikharahmadkhan@gcuf.edu.pk*
Prof. Dr. Mumtaz Ahmad Siddiqui
Dean, Faculty of Language Studies, Al-Madinah International University, Islamabad, Pakistan
Mr. Muhammad Abdullah Shah
Lecturer, Department of Arabic, Al-Madinah International University, Islamabad, Pakistan

Abstract

This paper examines the major poetic themes in the works of **Humayd ibn Thawr al-Hilālī**, one of the *mukhaḍram* poets who lived during both the pre-Islamic (*Jāhiliyyah*) and Islamic periods, reflecting the literary characteristics of both eras in his poetry. Raised in a desert environment, Humayd was profoundly influenced by its landscape, which shaped his poetic vocabulary and artistic imagery. Description (*waṣf*) constitutes the dominant theme in his poetry, particularly in his vivid portrayals of camels, nature, rain, lightning, and valleys, distinguished by precise observation and rich visual imagery. His poetry also includes chaste love poetry (*ghazal*), employing simile and sensory imagery to depict feminine beauty and modesty. Themes of pride (*fakhr*) emphasize the courage, honor, and noble values of his tribe, while elegy (*rithāʾ*), though relatively limited, is marked by sincerity and emotional depth, especially in his lament for the Caliph ʿUthmān ibn ʿAffān (may Allah be pleased with him). The study further highlights the influence of Humayd's

Bedouin life, his conversion to Islam, and his personal experiences in shaping his poetic vision. It concludes that his poetry serves as an important literary document reflecting Bedouin society in the early Islamic period and illustrating the interaction between pre-Islamic and Islamic values within an authentic and diverse poetic tradition of considerable literary and historical significance.

Keywords: Ḥumayd ibn Thawr al-Hilālī; al-Shāʿir al-Mukhaḍram; Ṣadr al-Islām; al-Bīʾah al-Badawiyyah; al-Shiʿr al-ʿArabī; Aghrāḍ al-Shiʿr al-ʿArabī; Waṣf; Ghazal; Fakhr; Rithāʾ

تَمْهِيد

يُعَدُّ حُميد بن ثور الهلالي من الشعراء العرب الذين عاشوا في الجاهلية ثم أدركوا الإسلام، ومن هنا ظهرت في شخصيته وشعره صفات العصرين معًا. وهو من قبيلة بني هلال المشهورة بالفصاحة والشجاعة. نشأ في منطقة بين نجد والحجاز قريبة من الطائف، في بيئة صحراوية أثّرت كثيرًا في شعره وألفاظه وصوره. ولهذا نجد في قصائده وصفًا غزيرًا للإبل، والأمطار، والبرق، والوديان، وحياة البادية بشكل عام. وقد اتفقت كتب التراجم على اسمه واسم أبيه، وهو حُميد بن ثور، واشتهر بكنية "أبي المثنّى"، كما لُقِّب بـ "حُميد الجمّالات"؛ لأنه كان يُكثر من وصف الإبل في شعره وصفًا دقيقًا وجميلًا، حتى أصبح الوصف من أبرز الموضوعات في قصائده.

عاش حُميد حياةً بدويةً بسيطةً تعتمد على التنقل والعمل من أجل المعيشة، ولذلك عمل في رعي الإبل ثم في التجارة ودبغ الجلود. وقد أثّرت هذه الأعمال في شعره، فظهر فيه صدق التجربة وقوة الملاحظة، خاصة في وصفه للإبل والطبيعة وأحوال الناس. ورغم أنه عاش حياة فقر ومشقة، فقد بقي معتزًّا بنفسه بعيدًا عن التكلّف. كما عُرف بشعر الغزل؛ فكان يصف المرأة وصفًا جميلًا يجمع بين دقة الملاحظة وروعة التصوير، وذلك إلى جانب اهتمامه بالمدح والفخر والرثاء، مما يدل على تنوع أغراضه الشعرية وغِنَى تجربته الأدبية.

وقد أدرك النبيَّ محمداً ﷺ وأسلم بعد غزوة حنين، حيث قدم مع قومه إليه ﷺ وأعلن إسلامه. جمع حُميد في شعره بين قوة الأسلوب الجاهلي وروح القيم الإسلامية، ولذا جاء شعره قريبًا من الحياة الواقعية التي عاشها. عاش عمرًا طويلًا حتى أدرك العصر الأموي، وشهد كثيرًا من الأحداث والتغيرات في تلك الفترة. ومن هنا، فإنَّ دراسة أغراض شعره تساعد على فهم شخصيته وبيئته وحياته؛ لأن شعر حُميد بن ثور يُعَدُّ صورةً صادقةً للحياة البدوية في صدر الإسلام، ويكشف عن مشاعره وتجربته الإنسانية بأسلوب واضح وجميل.

عاش حُميد بن ثور الهلالي في العصرين الجاهلي والإسلامي، ومن هنا عُدَّ شاعرنا من الشعراء المخضرمين. وسوف نقوم في ورقتنا البحثية هذه بدراسة أهم أغراض شعره من الوصف، والغزل، والفخر، والرثاء، والمدح، وذلك على سبيل المثال لا الحصر، كما سنبيّن كيف عبّر عنها بأسلوبه الخاص، وكيف تأثّرت هذه الأغراض بمجتمعه وبيئته التي عاش فيها. إن أغراضه الشعرية تعكس مشاعره، ومواقفه، ونظرته إلى الحياة، وتعطينا صورة دقيقة عن واقع المجتمع الذي عاش فيه.

(1)الوصف

الوصف هو تقديم نعت أو تصوير للشيء بناءً على خصائصه الفعلية والملموسة، وحجمه وخصائصه المميزة، قال الدكتور يحيى الجبوري مبيناً فن الوصف في العصر الجاهلي:

"والوصف من أبرز الفنون التي تميز بها الشعراء الجاهليون، حيث تأملوا البيئة الصحراوية بدقة وعناية، ورصدوا كل ما وقعت عليه أعينهم. وصفوا الطبيعة في مختلف مظاهرها، من سهولها وجبالها إلى رياضها ونباتها، ومن ديارها وأطلالها إلى أمطارها وسحبها وبرقها ونورها وظلامها، فنسجوا لوحات شعرية تنبض بالفن الأصيل. اهتموا بأدق التفاصيل، فصوروا مشاهد الصحراء، وجمال الحاضرة، ومجالس الناس وأزيائهم، ولم يتركوا شيئًا من مظاهر حياتهم إلا وثّقوه في قصائدهم".[1]

كان الوصف عنصرًا أساسيًا في شعر حُميد، حيث يظهر اهتمامه الكبير بهذا الأسلوب الأدبي. ويتضح أن الوصف هو أوسع موضوعات شعره وأكثرها حضورًا، بحيث لا تخلو أي من قصائده منه، حتى ولو كانت القصيدة ذات غرض مختلف عن الوصف.

وكان الوصف في شعر حُميد غالبًا ما يرتبط أو يمتزج بموضوع الإبل، والطبيعة، وأحوال الناس، إضافة إلى أنه كان يصف المرأة وصفاً دقيقاً في قصائده الغزلية، مما يعني أنه كان يستخدم الوصف لتجميل وإبراز تفاصيل تتعلق بالحبيبة أو المشاعر المرتبطة بها. ويتجلى هذا الأمر بشكل واضح في ثلاثٍ من قصائده الطويلة التي وصلت إلينا بشكل كامل، وهي: البائية، والقافية، والميمية.

لم يكن اهتمام حُميد بالوصف على حد قول شفيق البيطار ميزة خاصة به وحده، بل هو سمة عامة ميزت معظم شعراء عصره وحتى الشعراء الذين سبقوه. وهذا الأمر يعكس مدى أهمية الوصف كعنصر أساسي في الشعر العربي القديم، حيث استخدمه الشعراء لتصوير مشاهد حياتهم وبيئتهم والتعبير عن مشاعرهم بأدق التفاصيل.[2]

أمثلة الوصف من أشعاره:

وصف السحاب والمطر

وصف حُميد بن ثور السحاب تصويرًا بديعًا، فشبّهه بإبل حوامل ثقيلة تمشي ببطء من شدة ما تحمل من ماء، وبيّن أن السحاب ملأ السماء واقترب من الأرض لثقله. وكان البرق فيه كالشرر المتطاير من نار في غابة كثيفة، كماكان المطر فى رؤيته كالقطار من الإبل ارتوى حتى استقر في المرعى- إنه يقول :

كأن الرباب الدُّهم فى سرعانه — عشار من الكلبية الجون ظلع
أدانيه للأمواه من بطن بيشة — ولِلْأَوق والسيدان والمَيْنِ يَضْجَعُ
كأن اشتعال البرق في حجراته — ضرام شرى في أيكة يتشيع
تروى من البحرين عوذ رمية — كما استربع البز القطار المطبع[3]

ويتجه حُميد إلى وصف ناقته، فيصفها بعناية ويهتم بتربيتها ورعايتها، ويتأمل كل جزء من أجزائها كفنان يبدع لوحة شعرية تعبر عن جمال ناقته التي كانت في البداية ضعيفة وهزيلة، ثم أكلت العشب حتى امتلأت صحة وحيوية، وأصبحت تبدو مفعمة بالقوة والنشاط. والتي كانت ضعيفة ومنهكة، ولكنها الآن تستعرض قوتها وامتلاءها، حتى أن شكلها قد تغير تمامًا. بل تغيّر لونها أيضاً بفعل وفرة المرعى في فصل الربيع، حيث ظهرت ناقته في أجمل حالاتها وأزهى صورها وإنه يصف ناقته قائلاً:

على كل منسوج ببيرين كلفت قوى نسعتيه محزما غير أهضما
رعين المرار الجون من كل مذنب شهور جمادى كلها والمحرما
إلى النير فاللعباء حتى تبدلت مكان رواغيها الصريف المسدما[4]
وعاد مدماها كميتا واشبهت كلوم الكلى منها وجارا مهدما
وخاضت بأيديها النطاف ودعدعت بأقيانها إلا الوظيف المخدما[5]

وصف الحبيبة

لقد قام شاعرنا بوصف حبيبته ببراعة فنية في هذا المقطع الذي اخترناه حيث إنه يصور مشهداً جميلاً تتداخل فيه الهيبة والجمال، حيث تظهر الحبيبة وكأنها محاطة بحاجز يمنع الوصول إليها، فيقف بين الناس وبينها مانع قوي يفصل بين الضجيج والسكينة. ثم تظهر العذارى في صورة مليئة بالحياء والعزة، فيسود الهدوء ويغلب الوقار على الموقف كله .وبعد اضطرابٍ عابر يعود كل شيء إلى هدوئه، وتبقى في النفس تجربة مؤثرة تُظهر قوة المشاعر وعمق أثرها، حيث لا ينسى القلب ما مرّ به من إحساس على رغم عودته إلى الاتزان والسكينة إنه القائل:

فجاء بها الرداد يحجز بينها سدى بين قرقار الهدير وأعجما
وقامت إليهن العذاري فاقدعت أكف العذاري عزة أن تخطما
فلما ارعوى للرجز كل ملبث تصدر الصفا يتلو جرانا ملدما
إذا عزة النفس التي ظل يتقي بها حبله لم تنسه ما تعلما[6]

لقد استخدم حميد بن ثور فن الوصف لتجميل المرأة بحذر ولم يتطرق إلى إباحية و عبر عن مشاعره المرتبطة بها تعبيراً بعيداً عن أسلوب الشعراء الجاهليين وهكذا كان شاعرنا متمكناً من الوصف فقد وصف السحاب والناقة وحبيبته فأبدع شعره في هذا الغرض على غرار الشعراء الجاهليين إذ إن الشاعر يتأثر بمجتمعه وبيئته وزمانه كما أنه يتأثر بما يراه حوله وبما يعيشه من أحداث وتجارب.

(٢) الغزل

يعبر الغزل عن مشاعر الحب والعواطف التي يشعر بها العاشق نحو حبيبته، ويُصور الشاعر المرأة كعلم للجمال الإنساني، إذ يرى فيها كل معاني الجمال فيصور المشاعر التي تعكس أفراحه وأحزانه. لأن التعبير عن الحب أمر فطري موجود في النفس البشرية، وأن الإنسان بطبيعته يميل إلى الحب والأنس. هذا الميل إلى المرأة ليس شيئًا غريبًا أو مستحدثًا، كما يقول ابن قتيبة "الحب والغزل قريب من النفوس لائط بالقلوب لما وضع الله في تركيب العباد من إلف النساء والمحبة بها."[7]

لذا نرى أن معظم الشعراء يُعبّرون عن مشاعرهم تجاه المرأة عبر الغزل، إذ إن حب المرأة شيء يلمس القلوب ويثير المشاعر بسهولة، بل قد يعتبر من أعمق تعبيرات الحب في الأدب العربي وللغزل هناك تعبير آخر كما يقول الزبيدي: "قال أستاذنا إن التشبيب هو محادثة النساء والمشهور عند الأدباء وأهل اللسان أن الغزل و التشبيب هو وصف أعضاء المحبوب أو ذكر أيام الهجر والوصال. أو نحو ذلك."[8]

على رغم أنه إذا ما وصلنا إلى شعر حميد في الغزل لا يقنعنا هذا الأمر بأنه كان المحب المتيم الشغوف .الذي وقف قلبه على حب المرأة. كان شاعرنا شابًا جميلاً في مرحلة شبابه، ويشبه نفسه بـ"خارج من بيت عطار" إنه يقول:

من بعد ما كنت فيها ناشئا غمرا كأنني خارج من بيت عطار[9]

وإنه يتحدث عن دلال حبيبته، ويصف مشيتها، واختيالها في ثوبها الميسناني، ويشبهها بالنسيم العليل غصن والكثيب الطري إنه القائل.

وجاءت يهز الميساني مشيها كهز الصبا غصن الكثيب المرهما.[10]

وكانت حبيبة حُميد امرأة مميزة في جمالها وأخلاقها كما يظهر من أبياته فوصفها الشاعر بأنها بيضاء اللون، وعاشت في نعمة ورخاء بين أم حنون وأب كريم. عُرفت برقتها الشديدة لدرجة أن جلدها الناعم والحساس يُمكن أن يُجرح بسهولة بالغة، وذلك كما هو مُبين في قول الشاعر:

من البيض عاشت بين أم عزيزة وبين أب بر أطاع وأكرما

منعَّمة أو يصبح الذر ساربا على جلدها بضت مدارجه دما[11]

هكذا وصف الشاعر يصف حبيبته بجمال فائق، مشبهًا إياها بأشعة الشمس في وضح النهار، مما يعكس بديع حسنها، وفي هذا يقول الشاعر:

مرأة الضحى ما رمن حتى تحدرت جباه العذارى زعفرانا

فقلن لها قومي فديناك فاركبي فقالت إلا لا غير اما تكلما[12]

ويذكر الشاعر جانبًا آخر من صفات حبيبته والتي كان قد أحبها قبل اعتناق الإسلام وإنه يشير إلى وزنها وثقلها الذي يجعلها مميزة بشكل ملفت للنظر ويصفها بأنها ممتلئة الجسم ومكتنزة اللحم، مما يزيد جمالها الفريد في نظره. ويعبر عن ثقلها الشديد بطريقة بلاغية، فيشير إلى أن البعير نفسه لا يستطيع حملها. ويُصور بأن الحبال التي تربط سرج البعير قد تداعت ولم تتحمل الثقل. حتى أن أضلاع البعير كادت أن تتحطم تحت تأثير هذا الوزن، يقول الشاعر:

وَما كادَ لَما أَن علتهُ يقِلُّها بِنَهضَتِهِ حَتّى اكلأَزَّ وأَعصَما

وحتى تداعت بالنقيض حباله و همت بوانى زوره أن تحطما

وأَثر فِي صمِّ الصَّفا ثَفِناتُهُ وَرامَ بِلَمّا أَمره ثُمَ صَمَّما[13]

يصف الشاعر مشاعره عندما يفارق حبيبته، ويشبه حزنه بحزن الحمامة التي فقدت وحيدها وإنه يعبر عن تأثره بصوت الحمامة الحزين، ويجد في صوتها شجناً يعكس مشاعره:

ومالي بها علم سوى الظن والذى	الى بيته تزجى خواف وظلع[14]

هكذا أظهر الشاعر براعته في فن الغزل، ومما لا شك فيه أن هذه النماذج من غزله جاءت من الأيام التي عاشها في العصر الجاهلي؛ فقد نظم الشاعر أبياتاً في الغزل، إلا أنه لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً في أبياته هذه، بل ظل ممسكاً بنفسه عن السير في طرق الغواية والفحشاء، مكتفياً بإظهار براعته في هذا اللون من الشعر؛ إذ يقول:

سوى انني قد كنت أعلم أنها	هي العذب والماء البضاع المنقع
عجبت لها أني يكون غناؤها	فصيحا ولم تفخر بمنطقها فما[15]

(٣) الفخر

والفخر هو ذكر المرء بمناقب نفسه وقومه، وذكر مكارمه وحسن بلائهم، ورفعة نسبهم وحسبهم، وشهرة شجاعتهم وكرم عنصرهم التعديلات التي تم إجراؤها:[16]

ولا ينفصل هذا الغرض الشعري عن البيئة القبلية التي عاش فيها شاعرنا مدة؛ فتأثر بها في تفكيره وعمله الأدبي. والشاعر من أكثر الناس تأثرًا بالبيئة المحيطة به. وقد أشار الدكتور عمر فروخ إلى أن" :الفخر كان جزءاً من العصبية الجاهلية والحياة القبلية. وكان الشاعر يفخر بقومه أولاً وبنفسه ثانياً. وكانت أسباب الفخر في هذا العصر تشمل: شرف الأصل، وكثرة العدد، والحماسة، والجود، وما يرتبط بها. وكان الفخر بالنفس يُعتبر أقوى من الفخر بالقبيلة "السيادة"، أي أن الشخص الذي يفتخر بقومه وكان سيداً لهم في سن مبكرة كان له مكانة أعلى. وكان البدوي يفتخر أيضاً بالنجدة، أي سرعة المساعدة للآخرين بيده أو سيفه. كما كان يفخر بشرب الخمر وإعطائها للآخرين إذ الخمر كانت في الجاهلية نادرة وغالية."[17]

وهنا نرى أنه سار حُميد بن ثور على دروب شعراء عصره، مفتخرًا بقومه وبطولاتهم في ميادين القتال؛ إذ تظهر في شعره روح الشجاعة والفخر التي كانت سائدة بين العرب في الجاهلية وعصر صدر الإسلام؛ حيث كانت الحروب والبطولات جزءًا لا يتجزأ من ثقافتهم وهويتهم. وهكذا تجلت في شعره شجاعة قومه الذين كانوا لا يترددون في مواجهة أعدائهم، معتمدين على الأسنة والرماح، كما يصور قومه بأنهم لا يخشون الموت، ويفتخر بأنهم لا يتركون دماءهم تذهب هدرًا دون انتقام، بل يسعون للثأر والرد على الظلم. إلا أنه لم يقترب من المبالغة الممقوتة، بل ظل متوازنًا في فخره بقومه. وإنه يقول مفتخراً بقومه:

اذ لا حجاز لنا إلا مقومة زرق الأسنة والجرد المحاضير
يُعشى الجبان شعاع فى قوانسها اذا تجللها الشعث المغاوير
قد نكل الناس عنا في مواطننا ضربُ الرؤوس التي فيها العصافير[18]

وإنه يكرر هذه المعاني فيقول:

وما خلتنا اذ ليس يحجز بيننا وبين العدى إلا القنا الخواطر
وَوَصلُ الخُطا بالسَّيفِ والسَّيفُ بالخُطا إذا ظَنّ أَنَّ السَّيفَ ذو السَّيفِ قاصِرُ
الى أن نزلنا بالفضاء وما لنا به معقل إلا الرماح الشواجر[19]

وهنا يشيد الشاعر — دون مبالغة مستحيلة— بنخوة قومه وبأسهم وشجاعتهم ونجدتهم؛ مشيرًا إلى أنهم يُعرفون بإغاثة الملهوف، وسرعة إجابة المستغيث دون توقف أو تردد؛ وهي معروفة في التراث والأدب العربي بأنها أرفع خصال النجدة والنخوة القبلية فيقول:

قوم اذا سمعوا الصريخ رأينهم من بين ملجم مهره أو سافع[20]

يتغنى حُميد بميراث قومه من البطولة والشجاعة، معبرًا عن فخره بالآباء والأجداد الذين وضعوا بصمتهم في ميادين الحرب إنه القائل:

أحاولتموا كيما تطلوا دماءنا وأن تغفلوا فالله ليس بغافل
وما زال كر الخيل حتى أقادكم مغلغلة أعناقكم في السلاسل
مشينا فسوينا القبور فأصبحت لها حاجز عن نسلها المتفاضل

وهل سبقتنا قبلكم من قبيلة بوتر فتقتاسوا باحدى القبائل[21]

(٤) الرثاء

منذ بداية وجود الإنسان في هذا العالم، وهو يحاول الهروب من الموت، على الرغم أن الموت حقيقة لا مفر منها. ويتذكر الإنسان الموت كلما سمع بوفاة أحد أو فقد شخصًا عزيزًا عليه. ومهما كان الإنسان، سواء كان متعلمًا أو أميًا، أبيض أو أسود، فإنه يتألم لفراق من يحب .وغالبًا ما يتذكر محاسن الراحل ويثني عليه، حتى ولو كان المتوفى خصمًا أو عدوًا، مثلما فعل الأخطل عندما رثى الفرزدق بعد سنوات طويلة من الخصومة بينهما . ويبرز محمد سراج الدين رهافة حس الشعراء ورقة أفئدتهم عند فاجعة موت الأحبة، إذ يقول" :إن الشعراء، فهم أكثر الناس حساسية وتأثرًا بالموت، وبالرغم من أنهم لا يختلفون عن غيرهم في الشعور بالحزن على من فقدوا، إلا أنهم عبّروا عن هذا الحزن في أشعارهم، فرثوا أحباءهم وأقاربهم وكل من كان لهم مكانة خاصة في حياتهم.[22]

وقال الدكتور عمر فروخ متحدثاً عن فن الرثاء" :الرثاء في جوهره هو مدح للميت، لذا نجد أن الشعراء الجاهليين كانوا يركزون في رثائهم لموتاهم على الصفات التي كانوا يفتخرون بها ويثنون عليها. ولا شك أن رثاء الأقارب كان عادةً أكثر تعبيرًا عن المشاعر الصادقة. ويرتبط بالرثاء ما يُعرف بالنواح، وهو الشعر الذي كانت النساء تردده على الميت. ويبدو أن النواح في العصر الجاهلي كان قد بلغ درجة متقدمة، حتى أصبح أشبه بفن وحرفة يمتهنها البعض."[23]

لم يكن حميد بن ثور يرثي كل من رحل من عامة الناس؛ لذا يعد شعره في الرثاء قليلاً على الرغم من تمكنه من هذا الغرض الشعري، وامتداد أمره وطول عمره ومعاصرته لوفاة شخصيات بارزة كثيرة. فقد اقتصر رثاؤه على من تميز بسيرة حسنة وخلق كريم؛ مما يؤكد وعيه بأمانة الكلمة وقيمتها، ونأيه بشعره عن التكسب وطمع التقرب إلى الوجهاء والأثرياء عبر مراثيه. وبناءً على طبيعة الشخصيات التي قيلت فيها هذه المراثي والدوافع من ورائها، ينقسم شعر الرثاء عند حميد بن ثور إلى اتجاهين رئيسين: الرثاء العام، والرثاء الخاص .الرثاء العام :هو الذي يمكن تطبيقه على أي شخص من عامة الناس. وفي هذا النوع، قام حميد بن ثور بإظهار المناقب والصفات الحميدة له، مثل المروءة والشجاعة والكرم. وتظهر هذه الصفات في الأبيات التي تتحدث عن "ابن عمير" كملاذٍ لأهله، وكرمه الذي كان يغنيهم، وشخصيته التي كانت تُعتبر قدوة ومصدر فخر في المجالس. كان ابن عمير يبذل أمواله لمساعدة قومه وكان مرجعاً لقومه، يستندون إليه عند الحاجة، ويتحدث حميد بن ثور عن تأثير وفاة هذا الرجل خصوصًا على الأيتام الذين فقدوا الأب والراعي بقوله:

لقد غادر الموت قبل الصفا وبعد المشقر قدرا جليلا

كثير الحلاوة أخلاقه شديد المرارة صعبا ذلولا

وأيمت منسا التي لم تلد وكيتمِ بنيك وكنتَ الخليلا[24]

الرثاء الخاص :الذي يختص بشخصية مميزة كأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه. بدأ حميد بن ثور رثاء ثاني الخلفاء بقسمٍ يُظهر فيه إخلاصه واعترافه بفضل سيدنا عثمان عليه ويصف أن قتله ظلم عظيم ومعصية كبرى، حيث سُفِك دمه بغير وجه حق، وهُتك ستره ظلماً. ويصف

العقاب الذي نالهم، سواء بالقتل أو السجن، ويدعو الله أن يعاقبهم بنفيهم إلى أقاصي الأرض أو أن يوقع بهم أشد العذاب، إنه القائل:

التعديلات التي تم إجراؤها:

اني ورب الهدايا في مشاعرها	وحيث يقضى نذور الناس والنسك
ورب كل منيب بات مبتهلا	يتلو الكتاب اجتهادا ليس يترك
ان الخلافة لما العنت ظعنت	عن أهل يثرب اذ غير الهدى سلكوا[25]
صارت الى أهلها منهم ووارثها	لما رأى الله في عثمان ما انتهكوا
من كل أبيض هندي وسابقه	تأتى البنان لها من نسجها حبك [26]

ويفيض رثاء حُميد بن ثور للخليفة الراشد عثمان بن عفان - رضي الله عنه - بحرارة العاطفة وفورة الانفعال؛ إذ يشفّ شعره عن أسىً عميق وسخطٍ عارم إزاء المظلمة التي حلت بالخليفة الثالث، مع تنبيهه إلى أثر هذه الفاجعة وأبعادها الجسيمة في تماسك الأمة الإسلامية ووحدتها.

(٥) المدح

المديح في اللغة هو ضد الهجاء، ويعني الإشادة والثناء الجميل للممدوح على قيد الحياة. وفي الاصطلاح: يُعدّ واحدًا من أبرز أغراض الشعر العربي، ويُركز الذي هو المدح على الإشادة بمحاسن الشخص الممدوح وفضائله وصفاته الطيبة، مع إبراز خصاله الحميدة وسيرته الحسنة بين الناس. وقد أشار الدكتور شوقي ضيف إلى هذا الفن من فنون الشعر بقوله: فإن المديح يمثل مدرسة أخلاقية تسهم في غرس الفضائل والقيم النبيلة في الأفراد والمجتمع، حيث تبرز الصفات الإيجابية للشخص الممدوح، مما يجعلها نموذجًا يُحتذى به ويعزز حب الناس لتلك الصفات ولمن يتحلى بها.[27]

يُعد المديح من أكثر الفنون الأدبية انتشارًا، حيث توجه إليه أغلب الشعراء، ونظموا فيه العديد من القصائد التي تبرز فضائل الأفراد أو الجماعات. وكانت موضوعات المديح في الشعر مستوحاة من البيئة الصحراوية للمجتمع العربي القديم، الذي كان يقوم على قيم الفروسية. لذلك، كان الشعراء يمدحون الصفات مثل الكرم، والعزة، والشجاعة، والإباء، والانتصار على الأعداء، وإكرام الضيف، واحترام الجار، ونقاء النسب. وبذلك كان شعر المديح يركز بشكل أساسي على الإشادة بالقيم الإنسانية، بهدف الحفاظ عليها وترسيخها في النفوس، مما يبرز دور الشعر الأخلاقي والتربوي. في العصر الجاهلي، كان فن المديح غالبًا موجهًا للجماعة أكثر من الأفراد، وكان يتميز بالصدق والبساطة. ومع مرور الزمن، أصبح المديح وسيلة للحصول على المال، حيث بدأ الشعراء المتكسبون يستخدمون الصور البلاغية والاستعارات بأسلوب مبالغ فيه. ومن الجدير بالذكر أن المديح كان في البداية تعبيرًا صادقًا عن الإعجاب، ثم تحول إلى وسيلة للشكر، وفي النهاية أصبح وسيلة للتكسب والتزلف، ما جعله بمثابة مهنة مربحة. وفي العصر الجاهلي، لم تكن هناك قصائد مخصصة بالكامل للمديح، بل كان المديح جزءًا من القصيدة، حيث يبدأ الشاعر بالغزل، ثم ينتقل إلى الفخر، فالمديح، وربما الوصف أو الحديث عن الخمر. أما في العصور اللاحقة، فقد أصبح المديح فنًا مستقلًا، وتوسع ليشمل مدح الأفراد، والجماعات، والمدن، وحتى الأحزاب والتيارات المختلفة.[28]

لم ينظم حميد بن ثور المدائح بكثرة على الرغم من أنه كان يعيش في فترة عُرف فيها الشاعر بتكسبه بالمدح، إلا أنه كانت مدائحه محدودة للغاية مقارنة ببقية أغراض شعره .ولا نجد في شعره إلا

مقطوعات قليلة تمثل هذا اللون الأدبي، ومن أبرزها مقطوعة في مدح عبد الملك بن مروان. في هذه المقطوعة يصف حميد الرحلة الشاقة التي قام بها شاعرنا ليصل إلى عبد الملك، ويُظهر فيها تعبه وأمله في نيل العطاء إنه يقول:

أتاك بي الله الذي فوق من ترى وخير ومعروف عليك دليل
ومطوية الأقراب أما نهارها فَسَبَت وأما ليلها فذميل
وقطعى اليك الليل حضنيه أننى لذاك إذا هاب الرجال فعول [29]

ومن أبرز أبياته في المديح مقطوعة أنشدها حميد عندما علم أن ابنه قد أخذ بعيره وتوجه إلى مروان بن الحكم طلبًا للرفد لكن مروان لم يمنحه شيئًا، فاشعر حميد سوءا ولكن لم يرغب في أن يمنع ابنه من طلب المساعدة من الحكام. فأنشد حميد أبياتًا تسليةً لابنه، مشجعًا إياه على الاستمرار في صلة الملوك والحكام، وداعيًا إلى عدم الغضب أو السخط من ردودهم، إذ قال:

ردك مروان لا تفسخ أمارته ففيك راع لها ما عشت سرسور
وَلَو دَرى أَنَّ ما جاهَرتَنى ظَهَراً ما عُدتُ ما لأَلأَت أَذنابَها الفُورُ[30]

فإذا قورنت أبياته في المديح ببقية أشعاره، يُوجد أنه قليل جدًا، ويظهر أن حميد لم يكن مُسرفًا في استخدام هذا اللون الأدبي، حتى مع حاجته المادية. وكان أسلوبه في المدح مباشرًا، واقعيًا، خاليًا من المبالغات التي اشتهر بها الشعراء المُتَكسبون.

خلاصة الكلام:

يُعدّ حُميد بن ثور الهلالي من الشعراء المخضرمين الذين عاشوا فترة الجاهلية والإسلام، فتأثر شعره بخصائص العصرين معًا، وعكس حياة البادية والبيئة الصحراوية بصدق ووضوح .غلب الوصف على شعره، فبرع في تصوير السحاب والمطر والبرق والإبل والطبيعة، كما امتاز وصفه بالدقة وقوة الملاحظة والتصوير الفني الجميل .ظهر الغزل في شعره بصورة عفيفة بعيدة عن الفحش، فوصف حبيبته بالجمال والنعومة والحياء، مع عناية واضحة بالتشبيه والتصوير الحسي .تجلّى الفخر في شعره من خلال الاعتزاز بشجاعة قومه وبطولاتهم وسرعة نجدة المظلوم، مما يعكس روح العصبية القبلية والقيم العربية القديمة .جاء الرثاء في شعر حميد هو الآخر قليلاً في شعره، لكنه كان صادقاً ومؤثراً، وخاصة في رثائه لعثمان بن عفان رضي الله عنه، حيث عبّر عن حزنه وغضبه من الظلم والفتنة .كان المدح عند حميد أيضاً محدوداً، واتسم بالبساطة والصدق والابتعاد عن المبالغة والتكسّب، مما يدل على اعتزازه بنفسه وواقعية أسلوبه .امتاز شعر حُميد بن ثور بجزالة اللغة وقوة الأسلوب وتنوع الأغراض الشعرية، فكان نموذجًا بارزًا للشاعر البدوي في صدر الإسلام.

مراجع

[1] الجبوري، يحيى، الشعر الجاهلي خصائصه و فنونه، بيروت:مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ، ص:٢١٣
[2] ***الهلالي، حميد بن ثور***، ديوان حميد بن ثور، بتحقيق شفيق بيطار، ص:١١١ (مقدمة)
[3] ***المرجع السابق***، ص:٣٠٨،٣٠٩
[4] ***الهلالي، حميد بن ثور***، ديوان حميد بن ثور، بتحقيق شفيق بيطار، ص:٣٥٢
[5] المرجع السابق، ص:٣٥٣

[6] المرجع السابق, ص: ٣٥٤، ٣٥٥

[7] الدينوري، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، الشعر والشعراء، القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٣هـ،ج:١، ص: ٧٦

[8] الزَّبيدي، محمّد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، بيروت:دار إحياء التراث، ١٣٨٥ه ج:٣٠، ص ٩١

[9] ***الهلالي، حميد بن ثور***، ديوان حميد بن ثور، بتحقيق شفيق بيطار، ص:٢٧٧

[10] الشّنْقِيطي، أحمد بن الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مصر: الشركة الدولية، ٢٠٠٢، ص:١٣٥

[11] الدينوري، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، عيون الأخبار،ج:١، ص:١٤٠

[12] الشّنْقِيطي، أحمد بن الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، ص:١٣٥

[13] نجار، رضوان حسين، الصحابى الشاعر حميد بن ثور الهلالى حياته و شعره، ص: ٣٦٦

[14] الهجري، هارون بن زكريا، التعليقات والنوادر، ص: ٢٦١

[15] المجذوب، عبد الله بن الطيب، المرشد إلى فهم أشعار العرب، الكويت:دار الآثار الإسلامية،١٤٠٩هـ، ج:٣، ص:١٨٥

[16] الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، بيروت:دار العلم للملايين، ١٩٨٧م، ج: ٢، ص:٧٧٩

[17] فروخ، عمر، الدكتور تاريخ الأدب العربى،ج:١، ص:٨٣

[18] البكري، أبو عبيدعبدالله، سمط اللآلي، القاهرة:لجنة التأليف والترجمة والنشر،١٣٥٤هـ، ج:١، ص:٨٨٣

[19] المستعصمي، محمد، الدر الفريد وبيت القصيد، بيروت:دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥م،ج:٨، ص:٣٢٦

[20] المعافري، عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، مصر، شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ج:١، ص:٣١١

[21] الطائي، أبو تمام حبيب بن أوس بن الحارث، الوَحشيَّات، ص:٧٨

[22] محمد، سراج الدين، الرثاء فى الشعر العربى، بيروت: دار الراتب الجامعية، بدون سنة الطبع، ص:٥

[23] فروخ، عمر،الدكتور، تاريخ الأدب العربي،ج:١، ص:٨٣ ملخصا

[24] الخالديان، محمد بن هاشم و سعيد بن هاشم، حماسة الخالديين، السورية، وزارة الثقافة،١٩٩٥م، ج:٢، ص:٣٤٣

[25] الشافعى، علي بن الحسن المعروف بابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج:١٥، ص:٢٧٣

[26] المرجع السابق

[27] ضيف، أحمد شوقي عبد السلام، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، مصر:دار المعارف، الطبعةالثانية عشرة، ص: ٣٤

[28] سراج الدين، محمد، المديح فى الشعر العربى، بيروت:دار الكتب الجامعية دون سنة الطبع، ص: ٤

[29] الشافعي، علي بن الحسن المعروف بابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج:١٥، ص:٢٧٢

[30] الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان،ج:٢، ص: ٧٦